إسهامات الشيخ عثمان بن علي الحضيري وجهوده في المذهب المالكي
كتاب نبراس الظلام أنموذجا (ت: 1113هـ)

د. عبد السلام سالم حمزة/جامعة سبها/ كلية الآداب

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، واستنَّ بسنته واهتدى بهديه إلى يوم الدين، أما بعد: فهذه دراسة لشرح منظومة في الفقه، شارحه من علماء فزان.

سبب اختيار الموضوع.

أما عن سبب اختيار دراسة شرح هذه المنظومة، موضوعا للدراسة؛ أن شارحها من علماء فزان وهو ابن عالم كبير فوالده الشيخ علي الحضيري شارح المختصر، اخترتها محاولا إظهار إسهامات ابنه الشيخ عثمان بن علي الحضيري وجهوده في المذهب المالكي، وهذا خدمة للإسلام والمسلمين، وإكراما لناظمها وشارحها وإظهارا لفضلهما، ومن الأسباب أيضاً المشاركة بها في المؤتمر.

إشكالية البحث.

تكمن مشكلة البحث في أنه يتناول مخطوطة يجب تحقيقها وإخراجها للقراء، وهناك أسئلة منها: هل أجاد الشيخ شرح المنظومة؟ وعلى من اعتمد الشيخ في بيانها؟ وما هو أسلوبه في الشرح، وكيف أسهم في إثراء المذهب من خلال شرحه هذا؟.

الهدف من الدراسة/ تهدف الدراسة إلى بيان منهج شارح المنظومة، والتعريف به.

المنهج المتبع/ سلكت في البحث المنهج الوصفي التحليلي.

خطة البحث.

جاءت خطة البحث في ملخص فمقدمة، ثم **المبحث الأول**: الشيخ عثمان الحضيري وحياته العلمية. وفيه مطلبان: المطلب الأول: التعريف بالشيخ عثمان الحضيري. والمطلب الثاني: حياته العلمية. ثم **المبحث الثاني**: منهجه في كتاب نبراس الظلام في شرح منظومة قواعد الإسلام. وفيه مطلبان: المطلب الأول: التعريف بالناظم، ومنظومته. والمطلب الثاني: منهج كتاب نبراس الظلام شرح منظومة قواعد الإسلام. ثم الخاتمة. والفهارس.

المبحث الأول: الشيخ عثمان الحضيري وحياته العلمية.

سيكون الكلام بحول الله تعالى وقوته القوية في هذا المبحث على التعريف بالشيخ عثمان الحضيري، صاحب كتاب نبراس الظلام، وكذا الكلام على حياته العلمية التي كانت سببا في كتاباته وفتاويه، وجعلت هذا المبحث في مطلبين:

المطلب الأول: التعريف بالشيخ عثمان الحضيري.

في هذا المطلب سأعرف باختصار شديد بالشيخ اسمه ونسبه وأسرته، وكذا حياته العلمية، والتي من ضمنها شيوخه وتلاميذه، رحلاته، ومصنفاته.

أولا - اسمه ونسبه.

هو أبو عمر عثمان بن علي بن أبي بكر بن محمد حضيري بن عبدالله بن إبراهيم محمد الناعم(1)، كان يلقب -رحمه الله- بنبراس الظلام؛ نسبة لكتاب ألفه لقب به، تميزا له عن غيره من العلماء الذين اشتهروا بالعلم والتأليف ممن تسمى باسم عثمان، من ذريته. كالشيخ عثمان بن عمر صاحب أم الألغاز، والشيخ عثمان العالم بن محمد، كما لقب بالرحالة لكثرة رحلاته في طلب العلم، ونشره(2).

ثانيا - نسبه وأصله وتاريخ ميلاده.

ولد - رحمه الله - في النصف الثاني من القرن الحادي عشر سنة (1050هـ) بلدة الجديد سبها فزان مقر إقامة أسرته. ووالده الشيخ علي الحضيري شارح المختصر الخليلي صاحب التآليف المفيدة، والفتاوى العديدة، توفي -رحمه الله- سنة (1061هـ) وولده عثمان لم يتجاوز الأحد عشرة عاما، وكان أصغر إخوته رحمهم الله جميعا(3).

أشار والده - رحمه الله - في قصيدته المنظومة في مناسك الحج التي نظمها في المواجهة الشريفة في الروضة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام لأصله فقال- رحمه الله:

(1) المسك والريحان، ص130

(2) المصدر السابق نفسه

(3) أنظر ترجمة الشيخ علي الحضيري، مخطوط، بدون ت، عثمان بن علي الحضيري، لوحة رقم 3_4

فَاغْفِرْ لِنَاظِمِهَا عَلِيٍّ لَوْ جَنَى عَلَى نَفْسِهِ فَالْعَفْوَ مِنْكَ جَمِيلُ
أَبُونَا أَبُوبَكْرٍ الْحُضَيْرِي جَدُّنَا وَفزَّانُ وَطَنِي بِالْجَدِيدِ نَزِيلُ
بِزَاوِيَةِ الْأَجْدَادِ نَاعِمٌ أَصْلُنَا وَجَدِّي مِنَ الْأُمِّ النَّبِيِّ رَسُولُ(1)

فقد ذكر أن أصل آله ومَقدمُهم يرجع إلى ناعم يشير به لنعيمة وهي أرض بالساقية الحمراء بالمغرب في ذلك الوقت وهي الآن يقع جزء منها في المغرب وجزء منها في موريتانية، بعد أن كانت إقليما واحدا.

ففي قوله: بزاوية الأجداد ناعم أصلنا، إشارة فيه إلي موطن أجداده، وإلي أصل مقدمهم فموطن أجداده أرض نعيمة بالساقية الحمراء بالمغرب وأصلهم من قبائل الزوايا، وقبائل الزوايا هم في اصطلاح الموريتانيين مجموعة من القبائل المهتمة بالعلم والدين، يمتازون بدراسة العلوم الشرعية واللغة العربية، وإقامة شعائر الدين الإسلامي(2)، سموا بالزوايا، لملازمتهم للزوايا، جمع زاوية ويسمون بالمرابطين، لملازمتهم مواطن العبادة التي هي الرُبُط، جمع رباط، ومن ثم أصبح علَماً علي هذه القبائل كما يطلق عليهم اسم الطلبة؛ لطلبهم العلم واشتغالهم به(3).

المطلب الثاني: حياته العلمية.

سأختصرها في ذكر شيوخه ورحلاته وتلاميذه.

أولا – رحلاته.

لقب الشيخ عثمان بالرحالة لكثرة ترحاله وسفره وانقطاعه الفترات والسنين الطوال عن بلده لقصد التعليم وتحصيله والالتقاء بأهل الصلاح والانتفاع بصحبتهم.

ومن أوائل الرحلات التي استفاد منها تلك الرحلة التي خرج فيها من بلده مع شيخه محمد الصالح إلى طرابلس الغرب، حيث التقوا بالعلماء واستفادوا منهم وأفادوهم.

(1) منظومة مناسك الحج، مخطوط، علي بن أبي بكر الحضيري، لوحة رقم 2

(2) ينظر إرشاد المقلدين عند اختلاف المجتهدين، باب بن الشيخ سيدي الشنقيطي، تحقيق الطيب بن عمر بن الحسين الجكني، طب:1 1418هـ1997م، دار بن حزم، بيروت، لبنان، ص23

(3) المصدر السابق.

ومن العلماء الذين التقى بهم إبان إقامته في طرابلس الشيخ أبوعبدالله محمد بن محمد بن ناصر الدرعي الرحالة (ت 1085هـ) هذا الشيخ كان له أثر في حياة الشيخ عثمان فقد أخذ عنه العلم وصحبه فترة من الزمن في رحلاته إلي مصرو أرض الحجاز للحج، وقد كان الشيخ ابن ناصر رحمه الله فقيها صوفيا اشتهر بالفتوى له كتاب في مجلدين في الفتاوى مطبوع طبعة حجرية، أكثر من النقل عنه الشيخ عبدالسلام التاجوري في كتابه تذييل المعيار[1]، كما سافر الشيخ عثمان إلي أرض المغرب و السودان وبر نوح (برنو) [2].

وقد طاب له المقام في (أقدز) مدرسا هناك ومفتيا و مؤلفا حيث كان مقيما فيها سنة (1079هـ)[3]، ولا محالة أن في هذه الرحلات و الإقامات من الفوائد الشيء الكثير فقد التقى فيها بالعلماء والصلحاء يأخذ عنهم ويناقشهم ويناظرهم وينهل من معينهم أدبا وسلوكا[4].

وهكذا فقد قضى الشيخ نصف عمره في طلب العلا رحّالة في طول البلاد وعرضها، فإذا كان تاريخ ولادته (1050هـ) وتاريخ وجوده في أقذر (1079هـ) وتاريخ إقامته (1111هـ) في طرابلس وتاريخ وفاته 1113هـ يكون قد قضى من عمره النصف في الترحال في طلب العلم.

ثانيا - شيوخه، وتلاميذه.

فأما مشايخه الذين أخذ عليهم (وهم لا شك كثر) فمنهم:

1. الشيخ محمد الصالح بن حامد الحضيري ولد في بلدة الجديد بسبها تلقى علومه علي الشيخ علي بن أبي بكر الحضيري وغيره ارتحل إلي طرابلس و التقى فيها بعدة علماء كابن مقيل الكبير و ابن الإمام و أحمد المكني[5].
2. أبو عبدالله محمد بن داود العناني ذكره الشيخ أحمد الدردير في تراجمه[6].

(1) فتاوى العلامة محمد بن محمد بن مقيّل الكبير جمع وتحقيق د. جمعة الزريقي دار الإفتاء الليبية ط: 1، 2013م.
(2) المسك والريحان، ص (142-143).
(3) المصدر نفسه، ص (143).
(4) المصدر نفسه، ص (142-143).
(5) المصدر نفسه، ص (130-142-143).
(6) المصدر نفسه، ص (130).

3. أبو عبد الله محمد بن ناصر الدرعي(1).
4. الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخرشي(2)، التقى به الشيخ عثمان في مصر و أخذ عليه وقد ذكره في الفتوى (رقم 24) بقوله وزاد شيخنا الخرشي أن ظاهر قول مالك في العتبية ضعيف.

ومن تلاميذه: الشيخ الطاهر بن الحسن بن علي بن أبي بكر(3). والشيخ الشريف الحسن بن فائز بن علي بن فائز(4).

ثالثا – وفاته ومؤلفاته.

توفي - رحمه الله - بعد عمر حافل قضاه رحّالة في سبيل العلم تعلما وتعليما، وتأليفا وإفتاء، في مسقط رأسه ليلة السبت بعد غروب الشمس في الخامس والعشرين من محرم، فاتح عام ثلاثة عشر ومئة وألف (1113هـ/1701م) رحمه الله وأسكنه فسيح جناته آمين(5).

وقد ترك الشيخ جملة من المؤلفات، منها: في مجال العقيدة له شرح على العقيدة الصغرى في التوحيد للشيخ(6) أبي عبدالله محمد بن يوسف السنوسي (ت895هـ) الشهيرة بأم البراهين، وله شرح على منظومةٍ لوالده في التوحيد.

وفي مجال الفقه له شرح لمنظومة لشيخه الإمام الدرعي. التي معنا هنا، وله براهين الصدق في مورثات الرزق، وهو نظم بلغ عدد أبياته (68) بيتا. ثم شرحها.

وفي علم الفلك له شرح على رجز الإمام أبي مقرع في علم الفلك (7). ومنظومة في علم الفلك(8). وغيرها من الفتاوي والرسائل.

---

(1) سبقت ترجمته.
(2) المسك والريحان، ص (143).
(3) المصدر السابق.
(4) شجرة النور الزكية، ص (317).
(5) المصدر السابق.
(6) المسك والريحان، ص (134).
(7) المرجع السابق.
(8) المرجع السابق.

المبحث الثاني: منهجه في كتاب نبراس الظلام في شرح منظومة قواعد الإسلام.

لا شك أن للشيخ منهجا سار عليه في شرحه لأبيات هذه المنظومة، وعليه سينصب الكلام على منهجه فيه، من وجوه مختلفة، وذلك بعد التعريف بالناظم ورفع الجهالة عنه، ومن هنا جاء هذا المبحث في مطلبين:

المطلب الأول: التعريف بالناظم، ومنظومته.

اسم ناظم قواعد الإسلام هو الشيخ أبو عبد الله إمحمد بن مُحمد بن أحمد بن ناصر الدرعي الشهير ببن ناصر نسبة إلى جده المذكور، ويرجع نسبه إلى سيدنا جعفر بن أبي طالب، وقيل: إلى غيره، ولد في شهر رمضان عام 1011هـ، وتوفي في صفر الخير عام 1085هـ، من شيوخه والده الشيخ محمد بن ناصر، ومن أشهر شيوخه الشيخ أبو الحسن علي بن يوسف بن أحمد الدرعي (1045هـ)(1).

وقد سمى نظمه هذا بـ(مُسَاعِدة الإخوان في المفروض والمسنون على الأعيان) وهي منظومة في قواعد الإسلام، وتعرف بالمنظومة الدرعية(2). وهي عبارة عن نظم للقواعد الخمس التي جاءت في حديث ابن عمر -رضي الله عنهما- مرفوعا: بني الإسلام على خمس ... الحديث(3)، نظمها في ثلاثة وثلاثين بيتا من بحر الرجز، وهي مختصرة اختصارا شديدا.

نص منظومة قواعد الإسلام المسماة:(مُسَاعِدَةُ الْإِخْوَانِ فِي الْمَفْرُوضِ وَالْمَسْنُونِ عَلَى الْأَعْيَانِ)(4)، لأبي عبد الله محمد بن ناصر الدرعي:

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا عَطِرَا ... ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الْمُخْتَارِ مِنْ مُضَرَا
مُحَمَّدٍ خَيْرِ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمِ ... وَآلِهِ وَعَلَى أَصْحَابِهِ الْكُبَرَا
عَلَى الْمُكَلَّفِ شَرْعًا فَرْضُ مَعْرِفَةِ ... الْمَوْلَى إِرْسَالِهِ طُرًّا بِمَا يَسِرَا*
مِنْ وَاجِبٍ وَهْوَ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ وَضِدْ ... دُ ثُمَّ مَا جَازَ عَقْلاً غَيْرَ مَا ذُكِرَا*

(1) انظر طبقات الحضيكي، ص (319 - 321) وكتاب شجرة النور الزكية، لمحمد مخلوف، ص (453/1). الأعلام للزركلي (63/7 -64).

(2) مناسك الحج لأبي عبد الله محمد بن ناصر الدرعي، ص (247).

(3) انظر كتاب فزان ومراكزها الحضارية عبر العصور، لأبي بكر عثمان القاضي، ص (121).

(4) الأبيات التي في نهايتها نجمة (*) من إضافة الشارح.

باب التوحيد

إِعْلَمْ بِأَنْ لَيْسَ إِلَّا اللَّهُ خَالِقُنَا   رَبٌّ وَمَا إِنْ لَهُ شِبْهٌ وَلَا نُظَرَ
لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَا وَلَيْسَ لَهُ   فَاعْلَمْ شَرِيكٌ لَا عَوْنَ وَلَا وُزَرَا
مُنَزَّهٌ عَنْ صِفَاتِ النَّقْصِ مُتَّصِفٌ   مِنَ الْكَمَالِ بِمَا الْعُقُولُ قَدْ بَهَرَا
وَأَنَّ أَحْمَدَ خَيْرُ الْخَلْقِ أَرْسَلَهُ   فَبَلَّغَ الْوَحْيَ صَادِقًا بِمَا أُمِرَا

باب فرائض الوضوء

وَجْهٌ وَرِجْلٌ وَرَأْسٌ نِيَّةٌ   فَوْرٌ وَدَلْكٌ وَمَاءٌ مُطْلَقٌ طَهُرَا

بابُ سنن الوضوء

يَدٌ وَأَنْفٌ فَمٌ أُذُنٌ وَغَرْفَتِهَا   رَأْسٌ وَتَرْتِيبُ مَا مِنْ وَاجِبٍ غَبَرَا

بابُ فرائض الغسل

عَمِّمْ بِمُطْلَقِ مَاءٍ نَاوِيًا وَبِدَلْـ   ـكٍ بِوَلَاءٍ وَكُنْ مُخَلِّلًا شَعَرَا

باب سنن الغسل

غَسْلِ الْيَدَيْنِ وَتَنْشَاقٍ وَمَضْمَضَةٍ   كَذَاكَ مُسْحُ الصِّمَاخَيْنِ كَمَا سُطِرَا

باب فرائض التيمم

ضَرْبَةٌ اولَى وَوَجْهٌ نِيَّةٌ وَيَدٌ   وَالْفَوْرِ زِدْ وَصَعِيدًا طَيِّبًا طَهُرَا

باب سنن التيمم

تَجْدِيدُ ضَرْبٍ وَتَرْتِيبٌ وَمَسْحُ يَدٍ   مِنَ كُوعِهَا لِمِرَافِقٍ فَعِ الْخَبَرَا

باب فرائض الصلاة

اِنْوِ قِيَامًا بِإِحْرَامٍ وَفَاتِحَةٍ   وَاخْفِضْ بِرَفْعٍ وَرَتِّبْ سَاكِنًا حَذِرَا
وَاجْلِسْ وَسَلِّمْ وَكُنْ بِالسِّتْرِ مُعْتَدِلًا   مُسْتَقْبِلًا ذَا طَهَارَتَيْنِ مُعْتَبِرَا

باب سنن الصلاة

سِرٌّ وَجَهْرٌ وَسُورَةٌ وَوَقْفَتُهَا   وَتَشَهَّدٌ وَجُلُوسٌ أَوَّلًا ظَهَرَا
وَمَا مِنَ الثَّانِي يُقَدَّمُ السَّلَامُ وَجَـ   ـهْرٍ بِالسَّلَامِ وَسُتْرَةٍ كَمَا أَثَرَا
كُلُّ تَسْمِيعَةٍ بَدَتْ وَتَكْبِرَةٍ   إِلَّا الَّتِي أَوَّلًا بِهَا الْفَتَى جَأَرَا
وَزَائِدٍ عَلَى الَاطْمِئْنَانِ إِنْصَاتُ مُؤْ   تَمٍّ وَرَدِّ سَلَامِهِ لِمَنْ بَدَرَا

باب سجود السهو

لِلنَّقْصِ أَوْ مَعَ زَائِدِ السُّجُودُ أَتَى   قَبْلَ السَّلَامِ وَبَعْدُ لِلْمَزِيدِ جَرَى
فِي صُورَةٍ جَلْسَةٍ تَكْبِيرَتَيْنِ تَشَـ   ـهُدَيْنِ تَسْمِيعَتَيْنِ كَالْجِهَارِ يُرَى

باب شروط الزكاة

تَمَامُ مِلْكٍ وَحَوْلٍ وَالنِّصَابُ وَأَنْ   لَا يَنْقُصَ الدَّيْنُ جُزْءًا إِذَا اعْتُبِرَا

باب فرائض الصوم

مَعْرِفَةُ الشَّهْرِ وَالنِّيَّةُ عُدَّ لَهُ   تَرْكُ شَهْوَةِ الْأَجْوَفَيْنِ مُزْدَجِرَا

باب سنن الصوم

أَعْجِلْ بِفِطْرٍ تَمْرٍ أَوْ بِمَا أَتَى   عَنِ الرَّسُولِ وَكُنْ مُؤَخِّرًا سَحَرَا

باب الحج وسننه

أَحْرِمْ وَطُفْ وَاسْعَ وَاقِفًا وَسُنَّ لَهُ   تَلْبِيَةٌ لُبْسُهُ غُسْلٌ قَدِ ابْتَدَرَا
وَسَوْقُ هَدْيٍ رُكُوعٍ ثُمَّ مَشْيُ طَوَا   فٍ وَالدَّعَا وَتَقْبِيلُ أَخِي الْحَجَرَا
وَرَمَلٌ وَرُكُوعٌ بِالدَّعَا وَتَقْبِيلُ   صُعُودٍ وَالْإِسْرَاعَ السَّعَاةَ مُرَا
ثُمَّ مَبِيتُ مِنًى وَالْجَمْعُ فِي عَرَفَاتٍ   وَالدَّعَا وَفِي جَمْعٍ إِذَا نَفَرَا
وَمَشْعَرٍ وَجِمَارٍ وَالْحِلَاقَ وَتَرْ   كِ الطِّيبِ وَالصَّيْدِ وَالْمَخِيطِ

الخاتمة

1. قَدِ انْتَهَى وَلِرَبِّ الْحَمْدُ أَجْمَعُهُ   ثُمَّ السَّلَامُ عَلَى الْمُخْتَارِ مِنْ مُضَرَا
2. يَا رَبِّ فَاغْفِرْ لِقَارِئِهَا وَكَاتِبِهَا   وَنَاظِمِهَا وَحَتَّى كُلِّ مَنْ نَظَرَا

3. وَاغْفِرْ إِلَهِ جَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ وَثُمْ   مَ الْمُسْلِمَاتِ سَوَا مَنْ غَابَ أَوْ حَضَرَا

تَمَّتْ

المطلب الثاني: منهج كتاب نبراس الظلام شرح منظومة قواعد الإسلام.

سيكون كلامي على منهج المصنف في كتابه من جوانب متعددة، من حيث اسمه وسبب تأليفه، واستدلاله ومصادره، وأسلوبه في الشرح، مع تعامله مع المصطلحات، واعتراضاته ونقده، وكذا اختياراته وترجيحاته، كل ذلك باختصار.

أولا – اسم كتابه وسبب تأليفه.

1. أما عن اسم كتابه فقد سماه (نبراس الظلام في شرح منظومة قواعد الإسلام) والنِّبْراسُ -بكسر النون- هو المصباح[1]، فالإضافة بمعنى اللام. وهو عبارة عن شرح منظومة في قواعد الإسلام، كما مر بك.
2. سبب تأليفه له: حصر أهل العلم رحمهم الله مقاصد التأليف في سبعة مقاصد، ومن جملة ما ذكره من هذه السبعة المقاصد؛ أن يكون المقصد من التأليف شرح ما استغلق، كما هو الحال في المنظومة الدرعية، فهي منظومة احتوت على قواعد الإسلام الخمس إلا أنها جاءت مختصرة اختصارا بلغ بها حدّ الإيجاز الشديد، الذي جعل منها مجموعة ألغاز، فمثلا جاء في ذكره لباب فرائض الوضوء، قال:

وجه ورجل ورأس نية*** فور ودلك وماء مطلق طهرا**

جعلها كلها في بيت واحد، في حين أنك تجدها في نظم آخر في أكثر من بيت.

وباب التوحيد نظمه في أربعة أبيات، وهكذا جميع الأبواب، والتي وصل عددها إلى أربعة عشر بابا، في ثلاثة وثلاثين بيتا.

هذا الاختصار (الإلغاز) في المنظومة جعل بعض طلبة العلم يطلبون من الشيخ عثمان شرحها لهم، وقد ذكر هذا في بداية مقدمة شرحه.

ثانيا- أسلوبه في الشرح.

قدم الشيخ بمقدمة لهذا الشرح تعرَّض فيها لذكر بعض الملاحظات على الناظم

(1) القاموس المحيط، للفيروزآبادي، ص (576).

ومنظومته، منها: أن الناظم اقتفى في نظمه هذا حديث بني الإسلام على خمس، كصاحب منظومة القرطبية، والتي تسمى (التذكرة القرطبية) ليحيى بن سَعْدون القرطبي (ت:567هـ) بالموصل[1].

وقد علل الشيخ فعل الناظم بقوله: إن العبادة إما قولية وهي الشهادة، أو فعلية وهي نوعان: إما تركي وهو الصوم، أو فعلي وهو قسمان: بدني كالصلاة، ومالي كالزكاة، أو مركب من قول وفعل، وهو الحج[2].

وعلل أيضا سبب اقتصار الناظم على الفرائض والسنن، - حيث ذكر الدرعي ذلك في مسمة منظومته؛ فهي تسمى (مساعدة الإخوان في المفروض والمسنون على الأعيان) فقال: وسبب اقتصار الناظم على الفرائض والسنن كمتبوعه، يشير به إلى نظم التذكرة القرطبية – إن الجهل بهما هو المضر، فمن لم يعرفهما، ولم يميز بينهما، فطهارته باطلة، وشاهدته مردودة، وكذلك من لم يميز فرائض الصلاة من سننها لا تجوز إمامته، ولا تجوز شهادته، وكذلك يقال في صومه وزكاته وحجه بل وفي اعتقاده، ما يجب وما يجوز وما يستحيل في حق الله تعالى[3].

وكان من أسلوب الشيخ الذي اتبعه في شرحه، ذكر ما أغفله الناظم مما ينبغي ذكره، من ذلك حكم كلمتي الشهادة، ووجوب النطق بها مرة في العمر، بنية إسقاط الواجب، وإن لم ينو بذلك النطق الوجوب كان عاصيا، حيث قال الشيخ بعد ذكره للأحوال والمسائل التي تشارك كلمتي الشهادة: ويشاركها في الوجوب ذكرها مرة في العمر بنية إسقاط الوجوب، كالحمدلة، والصلاة على النبي ﷺ، والاستغفار للصحابة والتابعين[4].

قلت: ومن أمثلة ما زاده الشارح من الأبيات التي يراه مهمة وينبغي ذكرها في النظم قوله ناظما على نفس الناظم:

وَفِي زَمَنِ التَّكْلِيفِ مَرَّةً اَوْجَبَا ... الْإِلَهُ لَهُ حَمْدًا تَعَالَى الَّذِي حَبَا

وَكَلِمَةُ تَوْحِيدٍ وَحَجٍ صَلَاتُنَا ... عَلَى الْمُصْطَفَى مِثْلَ السَّلَامِ

---

(1) الأعلام للزركلي (8/ 147).

(2) مخطوط كتاب نبراس الظلام شرح منظومة قواعد الإسلام، ص (4) بتصرف.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه.

كَذَلِكَ لِاسْتِغْفَارُ لِلصَّحْبِ لَهُمْ حَازَ كُلَّ مَنْصِبًا وَتَقَرَّبَا

ومن الأمثلة أيضا أنه ذكر في التتمة السادسة في موجبات الغسل، الموت، والحيض والنفاس والإسلام، مغيب حشفة البالغ في الفرج ... [1]، ونظمها قائلا:

حَيْضٌ نِفَاسٌ مَنِيٌّ وَالْمَغِيبُ وَمَوْ تٌ ثُمَّ إِسْلَامُ شَخْصٍ كَانَ قَدْ كَفَرَا

وقد انتهج الشيخ طريقة التنبيه، والتنكيت، والتذييل، والتتميم، والتكميل، والتفريع والفوائد، لتناوله في شرحه لبعض المسائل التي أغفلها النظم، كما مر قبل قليل، وهذه تظهر دقة منهجيته. وقد جاء شرحه مزجيا، سالكا شرحه بكلمات النظم، بحيث تقرأ كلها كأنها في عبارة واحدة، وهذا النوع من الشروح من أصعبها، ولم يقدم عليه من متأخري المذهب إلا القليل منهم: الشيخ الدردير.

ثالثا- تعامله مع المصطلحات.

من عادة الشارح أنه يبدأ بتعرف مصطلحات الباب، لغة واصطلاحا، وهذا نهجه في جميع الأبواب الستة عشر، بل وفي كل كلمة ذكرت في المنظومة تقريبا.

فمثلا في الباب الأول وهو باب التوحيد، قال: والباب لغة ما يتوصل به من خارج إلى داخل، وعكسه، ولهذا سمى به مبتدأ كل كلام مقصود، لأنه يدخل منه إلى المقصود، ثم سمى به نفس ذلك الكلام بابا، للوصول منه إلى المعاني.

وقال في تعريفه اصطلاحا: ألفاظ مخصوصة دالة على معان مخصوصة.

وقال في تعريف التوحيد: لغة هو: الحكم، أو العلم بأن الشيء واحد. فيحتمل أنه على حذف مضاف أي يعلم التوحيد. وهو عرفا [أي اصطلاحا] إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته، ذاتا وصفات وأفعالا[2].

وقال في باب الحج: تقدم أن الفرض والواجب مترادفان، وهذا في غير ما نحن بصدده، أم في باب الحج ففرقوا بينهما، فجعلوا الفرائض ما يجبر بدم، والواجب ما يجبر به. والحج بفتح الحاء وكسرها، ... وهو لغة: القصد، وقد غلب على قصد الكعبة، للنسك

(1) المصدر نفسه، ص (23) بتصرف.

(2) مخطوط كتاب نبراس الظلام شرح منظومة قواعد الإسلام، ص (4) بتصرف.

المعروف. وشرعا عبادة يلزمها الوقوف بعرفة ليلة عاشر ذي الحجة[1].

رابعا- اعتراضاته ونقده.

أ- اعتراضاته.

كانت للشيخ اعتراضات على الناظم وغيره، منها أنه قال: «تبع الناظم في عده الماء المطلق من فرائض الوضوء، والمذهب أنه شرط؛ لأنه خارج الماهية، والفرض ركن داخلها»[2].

ومن اعتراضاته على غير الناظم أنه قال: قال ابن عطاء الله وما قاله سند: إن الهدي ليس من سنن الحج، بل من مستحباته، ضعيف[3].

قال الشارح: «وقد شاهدنا شيخنا الناظم في حجتنا معه ساق هديين وكان محبا للسنة رضي الله تعالى عنه»[4].

ب- نقده.

انتقد الشيخ الشارحُ الناظمَ في قوله:

وَرَمَلٌ وَرُكُوعٌ بِالدُّعَا وَتَقْبِيلٌ صَعُودٌ وَالْإِسْرَاعَ السَّعَاةَ مُرَا

ففي هذا البيت يذكر الناظم الرمل في الطواف، مع الدعاء ثم صلاة ركعتي الطواف بعد تمامه، بجعل المقام بينه وبين الكعبة، وبعدها تقبيل الحجر الأسود ثم التضلع من ماء زمزم والاتجاه إلى الصفاء والقيام عليه.

قال: ولو قال وقيام لكان أحسن؛ لأنه لا يلزم من الصعود القيام، بخلاف عكسه، فكل قيام صعود[5].

ومن ذلك أنه ذكر عدة تمات، في معرض شرحه لباب الزكاة:

تَمَامُ مِلْكٍ وَحَوْلٍ وَالنِّصَابُ وَأَنْ لَا يَنْقُصَ الدَّيْنُ جُزْءً إِذَا اِعْتُبِرَا

(1) المصدر نفسه.
(2) المصدر نفسه، ص (19).
(3) مخطوط كتاب نبراس الظلام شرح منظومة قواعد الإسلام، ص (61).
(4) المصدر نفسه.
(5) المصدر نفسه، ص (65).

قال الشارح في أحد هذه التتمات: بقي من شروط الوجوب الإسلام، وتركه؛ إما للعلم به أو جنوحا منه إلا الراجح من أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، وأما الحرية فداخلة في تمام الملك[1].

وقال في تمة أخرى: سكت الناظم عن شروط إجزاء الزكاة، وهي أربعة: الشرط النية عند عزلها، والثاني: تفريقها بموضع الوجوب، والثالث: إخراجها بعد وجوبها، والرابع: دفعها للإمام إن كان عدلا في أخذها وصرفها[2].

خامسا- اختياراته وترجيحاته.

من اختياراته وترجيحاته أنه قال - في شرح باب الغسل -، قوله: (مسح الصماخين ... وقال سيدي زروق: والظاهر أنهما يغسلان مع الرأس، وكان بعض الفقهاء يرى إفرادهما بالغسل؛ لأنه أحوط ... وما استظهره سيدي زروق هو ظاهر قول التهذيب[3]، والأذنان من الرأس فلا ينبغي التردد في ذلك، والله أعلم[4].

من اختياراته وترجيحاته أيضا أنه قال – في باب الغسل – ولا يجب تحريك الخاتم والخرص والسوار على المشهور، وما جاء في نظم مقدمة ابن رشد ضعيف[5]. وله اختيارات وترجيحات في مواطن عديدة، رحمه الله تعالى.

سادسا- استدلاله ومصادره.

أ- استدلاله.

يستدل الشيخ كثيرا بآيات القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة وكذا أقوال كبار أئمة المذهب.

فمن استدلاله بالسنة، قوله – في باب سنن الوضوء-: غسل اليدين أولا قبل ادخالهما في الإناء، في السنة منصبة على قولنا أولا لا على أصل الغسل فإنه فرض ... وهل ثلاثا كما يشير إليه حديث ميمونة – رضي الله عنها-، أو مرة كغيرها؟

---

(1) المصدر نفسه، ص (49).

(2) المصدر نفسه، ص (49-50).

(3) التهذيب في اختصار المدونة، لخلف بن أبي القاسم محمد، البراذعي المالكي (1/ 184).

(4) مخطوط كتاب نبراس الظلام شرح منظومة قواعد الإسلام، ص (24).

(5) المصدر نفسه، ص (24).

منها: استدلاله - في شرح باب الصيام - بحديث أصحاب السنن ومحمد بن خزيمة والحاكم أنه قال: «**إِذَا أَفْطَرَ أَحَدُكُمْ فَلْيُفْطِرْ عَلَى تَمْرٍ، فَإِنَّهُ بَرَكَةٌ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ تَمْرًا فَالْمَاءُ فَإِنَّهُ طَهُورٌ**»(1).

قال: وأخرج أبو داود عن أنس ﷺ أنه قال: «**كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُفْطِرُ عَلَى رُطَبَاتٍ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ رُطَبَاتٌ، فَعَلَى تَمَرَاتٍ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ حَسَا حَسَوَاتٍ مِنْ مَاءٍ**» (2).

وقال في تنبيه – في باب سنن الصوم - أشعر قوله (أعجل بفطر... إلخ) بتقديم الفطر على الصلاة، كما في الحديث الثاني، وفي المنتقى والموطأ خلافه(3)، ووفق بينهما بحمل التعجيل بالفطر، قبل الصلاة على الفطر باليسير من الطعام، وما في المنتقى والموطأ على طعام العشاء(4).

ويستدل من حيث النقولات بأقوال الشيخ زروق، والحطاب، والقاضي عياض، وابن رشد، وشيخه صاحب النظم، ووالده.

ب- مصادره.

أما عن مصادره التي نقل عنها وتعامل معه فهي كثيرة، أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: مختصر خليل بن إسحاق الجندي، ومتن رسالة ابن أبي زيد القيرواني، وكتاب الإعلام بقواعد وحدود الإسلام للقاضي عياض، ومناسك الحج لخليل بن إسحاق الجندي، ومواهب الجليل على مختصر خليل للحطاب، وتهذيب المدونة للبراذعي، والتنبيه لابن بشير، وشرح مختصر خليل للشيخ سالم السنهوري، ومناسك الحج لابن الحاج، وكتاب الإكمال للقاضي عياض، والتذكرة القرطبية لسابق الدين القرطبي، ومنظومة الفتح والتيسير، لوالده الشيخ علي الحضيري، ... وغيرها.

ونقل أيضا عن كتب الصحاح كالصحيحين، والسنن الأربعة ومستدرك الحاكم، ومصنف ابن أبي شيبة، وغيره.

(1) سنن الترمذي، أبواب الصوم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء ما يستحب عليه الإفطار، برقم (695) وقال: هذا حديث حسن صحيح.
(2) سنن أبي داود، كتاب الصوم، باب ما يفطر عليه، برقم (2356).
(3) يشير إلى حديث الموطأ، كتاب الصيام، باب ما جاء في تعجيل الفطر، برقم (634). ولفظه: عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ «لاَ يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ».
(4) مخطوط كتاب نبراس الظلام شرح منظومة قواعد الإسلام، ص (55) بتصرف.

ونقل عن بعض التفاسير منها تفسير أبي عبد الله القرطبي، المسمى الجامع لأحكام القرآن والمعروف بتفسير القرطبي.

ونقل عن كتب العقائد، منهما كتابي عقيدة أهل التوحيد، ويسمى العقيدة الكبرى، وأم البراهين، ويسمى العقيدة الصغرى، فمن هذه المصنفات ما صرح الشارح باسمه، وهناك ما ذكر مؤلفها ولم يذكر اسم الكتاب، فعلم أنه نقل عنه.

الخاتمة:

بعد هذا التطواف الشائق في رحاب هذا الشرح الماتع ظهر للباحث جملة من النتائج والتوصيات، منها الآتي:

1. أجاد الشيخ شرح المنظومة شرحا وافيا تناول فيها ضبط النص وتعريف مصطلحاته، وفك رموزه وعبارته، بشكل متقن، وسببه أن الناظم شيخه.
2. اعتمد الشيخ في بيان أبيات المنظومة على جملة كبيرة من المصادر والمراجع، تقدم ذكرها.
3. أسهم الشارح في إثراء المذهب، من خلال ذكر الأقوال والترجيح بينها.
4. كان أسلوب الشيخ في الشرح طريقة الشرح المزجي، وهي من أصعب الطرق.

توصية:

أوصي بالرجوع إلى المنظومات والمتون النافعة حفظا وتدريسا، فتلك المنظومات غالبا ما يظهر فيها إخلاص مؤلفيها، وإتقانهم لها، وتلقي العلماء لها بالقبول والتقرير.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع.

1. إرشاد المقلدين عند اختلاف المجتهدين، باب بن الشيخ سيدي الشنقيطي، تحقيق الطيب بن عمر، ط:1 1418هـ1997م، دار بن حزم، بيروت، لبنان.
2. الأعلام لخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، (ت: 1396هـ)، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: 15، 2002م
3. ترجمة الشيخ علي الحضيري، مخطوط، (د. ت)، عثمان بن علي الحضيري.
4. سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث الأزدي السِّجِسْتاني (ت: 275هـ)،

تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.
5. سنن الترمذي، لمحمد بن عيسى بن سَوْرة، الترمذي، أبو عيسى (ت: 279هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، مطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ط2، 1395هـ - 1975م.
6. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمحمد بن محمد ابن سالم مخلوف (ت: 1360هـ)، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1424 هـ - 2003م.
7. طبقات الحضيكي.
8. فتاوى العلامة محمد بن محمد بن مقيّل الكبير جمع وتحقيق د. جمعة الزريقي دار الإفتاء الليبية ط: 1، 2013م.
9. فزان ومراكزها الحضارية عبر العصور، لأبي بكر عثمان القاضي، دار المحيط العربي، بيروت/ لبنان، ط1.
10. القاموس المحيط، لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت: 817هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط8، 1426هـ - 2005م.
11. مخطوط كتاب نبراس الظلام شرح منظومة قواعد الإسلام، (مكتبة الدكتور عبد السلام سالم حمزة الحضيري، سبها الجديد.
12. المسك والريحان فيما احتواه عن بعض علماء فزان، لأحمد الدردير الحضيري، تحقيق: أبو بكر القاضي الحضيري، سبها / ليبيا، ط1، 1996م.
13. مناسك الحج لأبي عبد الله محمد بن ناصر الدرعي.
14. منظومة مناسك الحج، مخطوط، علي بن أبي بكر الحضيري.
15. الموطأ، لمالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (ت: 179هـ)، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد - أبو ظبي – الإمارات، ط1، 1425هـ - 2004م.